عناصر افريقية في الأحاجي السودانية
بالتفات لمنطقة الرباطاب

احمد المعتصم الشيخ

لم يؤد دخول العرب في السودان الى محو الثقافة السودانية المحلية ، وانما أدى الى نوع من التلاقح والتزاوج والمعايشة جنبا الى جنب بين الثقافتين العربية والمحلية ، والى مجال واسع للاخذ من الثقافة المحلية وابقي منها رافدا يغذى الثقافة الجديدة ، مما اكسب المجتمع السوداني والثقافة العربية في السودان نكهة خاصة ولذلك نجد موروثات ضخمة خاصة في الأدب الشعبي كالقصة الشعبية وخاصة الاحاجي احتفظت بوظيفتها وترجع الاسباب التي جعلت الاحاجي القديمة تستمر في اداء وظيفتها الى انها .

(أ) لم تكن تمثل اى تهديد للعقائد الاساسية للدين الجديد حيث ان مجالها هو الخيال والخرافة.

(ب) عدم وجود منافسة قوية من القصص الواردة مع العرب ، من حيث غناها وكثرتها وحبكتها الفنية العالية واحتفاظها بوظيفتها التعليمية في المجتمع التقليدى .

(ج) قابلية الاحاجي بطبيعتها للنقل والترجمة وادخال الاشياء الجديدة فيها.

وفي الاحاجي نجد عناصر كثيرة محلية او افريقية الاصل ، كانت موجودة قبل دخول العرب في السودان ، واحتفظت بها الاحاجي حتي الآن . وسوف يكون التركيز في هذا البحث على ثلاث سمات رئيسية افريقية محلية لاهميتها البالغة ودلالتها الكبيرة ، وذلك بالتفات خاص الى الاحاجي في منطقة الرباطاب .

اول هذه السمات هو النظام الاجتماعى الذى تعكسه الاحاجي . وثاني هذه السمات هو بقايا اللغات غير العربية في الاحاجي وبالذات من ناحية الاسماء في الاحاجي . والسمة الثالثة هي المعتقدات الدينية والاعتقادات الاخرى التي تعكسها الاحاجي.

العناصر المحلية في الاحاجي :-

الاحاجي في السودان تعتبر واحدة من صور متعددة من انواع القصة الشعبية فهناك السيرة والرواية مثل ابو زيد الهلالى وعنترة والقصص البطولية التي ترويها القبائل عن ابطالها كموسي ود حلي ويوسف سنينات والقصة العاطفية مثل المحلق وتاجوج وقصص الاولياء والفقهاء وغيرها . ومن

الواضح ان القصص والسير الشعبية الاخرى وفدت مع العرب او انتجت عن احداث وقعت بعد دخولهم السودان وفيها شئ من الواقع [1].

والذهن الشعبي يفرق تفريقاً واضحاً بين هذه القصص وبين الاحاجى . فلفظة «الاحاجى» نفسها مربوطة بنوع معين من فن القصص الشعبي ذى الطابع المختلف عن كل ضروب القصة الاخرى وعلى هذا التميز الشعبي للأحاجى اعتمدت هذه الدراسة.

واذا سلمنا بأن هذه الاحاجى تمثل الى حد كبير صورة للمجتمع الذى نبعت منه والبيئة الجغرافية فيه ، فأننا نجد انها تعكس مجموعة من الظواهر المحلية.

اولا: نجد المنطقة الشمالية من السودان تعتمد اعتمادا جوهريا واساسيا على النهر . فالنهر حياتهم وعليه تعتمد معيشتهم وشتي ضروب نشاطهم الاخرى في الحياة. والنهر في كثير من الاحيان يؤثر على حياتهم تأثيرا بالغا . فانخفاض منسوب النيل مثلا يؤدى الى حدوث مجاعات لاعتمادهم عليه في الزراعة وفي تربية الحيوانات التي تعيش فيه او حوله.

هذا الدور الاساسي الذى يلعبه النهر في حياة السكان منذ القدم نجده يتمثل بوضوح في الاحاجى. وهو يمثل الارضية الاساسية لاحداث «الحجوة» (مفرد احاجى) .

وكذلك نجد النشاط الزراعى وانواع المزروعات – والسواقي والممارسات الزراعية وأهميتها كل ذلك واضحا في صلب الاحاجى ، كما تنعكس فيها ايضا حياة الفئات الاخرى كصائدى السمك واصحاب المراكب المسترزقين من هذا النهر .

وحول هذا النهر تصورلنا الاحاجى مجموعة من المعتقدات والقوى الخرافية السحرية . فنجد مثلا الاعتقاد بأن هناك مجموعات من الارواح التي تسكن النهر وممالكهم وكذلك الحور . فقصة مثل قصة (ود الحواتي وود السبيل) توضح نوعا من العلاقات التي تقوم بين البشر وهذه المخلوقات.

ونجد في الاحاجى كذلك ادوارا تلعبها الحيونات في حياة الناس مثل التمساح الذى يثير الكثير من الخوف والفزع والذى يرتبط ارتباطا كبيرا بروح الشر في الاحاجى . وكذلك نجد القرابين التي تقدم لاسترضاء النهر . وايضا تلك الارواح الخرافية التي تتحكم في علاقة السكان مع النهر والتي عندها القدرة على منع الناس من ورود النهر لاخذ حاجتهم من الماء «كالتمساح ذى السبعة رؤوس» الذى يمنع الناس الماء مالم تقدم له القرابين والذبائح التي تصل الى حد تقديم القرابين البشرية . ونجد كذلك الجزر الغامضة المسكونة بالارواح والسعالى وغيرها من المخلوقات كما في حجوة (ست الجزيرة النية) و(بنات القرنجى والبورنجى).

وتصور الاحاجى ايضا النظم السياسية التي تتكون في الاساس من ممالك صغيرة متجاورة – تقوم على نظام اوتوقراطى في الحكم حيث نرى صورة السلاطين والملوك يحكمون ممالك صغيرة متجاورة فيها حياة البلاط الملكى او السلطاني بوظائفه السياسية . ولا تعكس هذه الاحاجى صورة للنظم الحالية

التي تكونت بعد دخول العرب والتي توضح صورة لحياة قبلية . وفي الاحاجى تتحدم الاشارة الى النظام القبلى – بعكس الصورة في الانواع الاخرى من القصص الشعبي التي تنقل وبصورة واضحة حياة المجتمع القبلى . ففي مثل حجوة (الزيبقاني) يمر بطل الحجوة في بحثه عن مطالب والده بعدة ممالك وسلطنات قائمة بذاتها.

ومظهر اخر نجده واضحاً في الاحاجى وهو النشاط التجارى ممثلا في القوافل التجارية . والمجتمع المحلى عرف منذ زمن طويل هذه القوافل والتي كانت احد الاسباب الرئيسية في ازدهار الممالك في السودان مثل مملكة نبتا ومروى . وقد كانت الطرق التجارية تربط السودان شرقه وغربه بالشمال والجنوب.

كذلك نجد الانعكاس للمدن الكبيرة التي كانت تصب فيها هذه القوافل والمراكب التي انتظمت النهر . والمعروف انه في فترات كثيرة وفي اثر التحضر قامت مدن تستحق هده التسميه في فترات الازدهار الحضارى مثل نبتا ومروى والكوة وفرص والتي كانت مقراً للحكام ومصبا للطرق التجارية والقوافل.

وتعكس الاحاجى ايضا الخطر الدائم من البدو والقبائل الرعوية التي كانت تهدد هذا المجتمع المستقر وهذه الممالك في فترات الضعف التي تلم بها وفي فترات المجاعات ، وذلك في صورة القوم «القمان» ومجابهة القوم وهى من الفرص التي تظهر فيها البطولات ويبدو ان هذه «القمان» كانت تمثل تهديدا خطيرا لهذه الممالك الصغيرة ، لان صدها يحتاج الى مجهودات كبيرة فنجد فى الاحاجى ان جائزة الشخص الذى يقوم بدحر هذا الخطر جائزة كبيرة «كتزويجه من ابنة الملك» الذى يعني بالتالى اكتساب الحق في الوراثة للعرش.

النظام الأمومى في الاحاجى :–

قد يتبادر الى الذهن ان هذا الجو الغريب الذى يحسه السامع او الدارس للاحاجى السودانية ما هو الا صورة لاحدى وظائف الفولكلور وهى وظيفة «الهروب النفسي» . فالفولكلور يصور لنا محاولات الانسان للهروب في الخيال الجامح من ظروف بيئته الجغرافية ، ومن حدوده البيولجية الخاصة بوصفه عضوا في الجنس منتميا الى نوع الانسان(٢).

ولكن النظرة المتفحصة تكشف لنا ان السبب يكمن في ان هذه الاحاجى تمثل نظاما اجتماعيا يختلف عن النظام القائم في السودان الآن فالمجتمع في منطقة الدراسة الآن يتمثل تمثلا كاملا النظام الابوى في الوراثة وفي النظام الاجتماعى.

ولكن اذا رجعنا الى تاريخ المنطقة وحتي دخول العرب في السودان ، نجد ادلة كثيرة تثبت ان النظام الامومى في العلاقات الاجتماعية وفي الوراثة كان سائداً في المنطقة.

فهناك بعض الادلة على الاسر الحاكمة في مملكة نبتا كانت ذات نظام اموى[٣] وكذلك نجد «الاتجاه نحو اضفاء تلك الاهمية العظمى «للمملكة الام» ووضعها في مرتبة اعلى من مرتبة ابنها في الحكم ، واضفاء اهم لقب في الحكم عليها وهو مظهر كوشى (سوداني) في الحكم بلغ اوجه في القرن الاول قبل الميلاد[٤] .

وهناك ادلة ايضا على ان هذا النظام كان سائدا في الممالك المسيحية التي خلفت دولة مروى وان «الملكات الامهات» كان لهن وضعا سامياً[٥] .

وهناك اشارات الى ان العرب عند دخولهم في السودان وجدوا هذا النظام الاموى ، واستفادوا منه الى الحد البعيد . فقد وصف ابن خلدون وراثة ابناء العرب من قبيلة جهينة للحكم في النوبة عن طريق امهاتهم النوبيات «على طريقة الاعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت»[٦] .

وليس هناك ما يدعو للمغالطة في ان نظام الوراثة عن طريق الام في الاساس (بالمعني الواسع من حيث ذهاب حقوق الوراثة عن طريق الاناث وليس عن طريق الذكور) وليس بالمعني الفني الضيق الذى يشيع استعماله الان عند علماء (الانثربلوجيا) بقيت آثاره لفترة متأخرة في افريقيا اكثر من معظم المناطق الاخرى في العالم[٧] .

هذا النظام الذى كان يسود بوضوح في النوبة المسيحية والى حد ما في المراحل الاولى من مراحل المجتمع المسلم (القرن الرابع عشر الى القرن الثامن عشر[٨]) ينعكس وبصورة مكثفة في الاحاجى حيث نجد الدور المؤثر والكبير الذى تلعبه ابنة الملك او السلطان في اغلب الاحاجى . ونجد الغياب شبه الكامل لابناء الملك المذكور كعامل مؤثر في السياسة او وراثة الحكم . فبنت السلطان في الاحاجى هى الجائزة الاولى للاعمال الخارقة وابراز المهارات غير العادية التي يقوم بها اشخاص عاديون في الحرب مما يؤدى الى الارتقاء الطبقي في مجتمع يبدو بصورة واضحة انه مجتمع اقطاعى تفصل الحواجز الاجتماعية فيه بين الطبقات .

فلذلك تورد الاحاجى الحلم بالزواج بالأميرة . والزواج بالاميرة في الاحاجى دائما تتبعه حقوق في الوراثة والحكم لاى كائن كان ومهما كانت طبقته . وفي الاحاجى نجد الجملة التي تكاد ترتبط ارتباطا عضويا بزواج اى شخص من الاميرة : (واعطاه الملك نصف حقه ونصف مملكته) ، وهى جملة فيها الكثير من الايحاء بحق الاميرة في الوراثة.

كذلك نجد في مظاهر النظام وراثة ابن الاخت للخال.ولذلك يظهر في الاحاجى الدور الواضح للخال ، والعلاقة كبيرة بين الخال وابناء الاخت من حيث مسئوليته عنهم وواجباته نحوهم.وحجوة (كعيجيل ود الحرام) تعكس هذه العلاقة حتي لو كان هؤلاء الابناء غير شرعيين .

ونجد في الاحاجى الارتباط الكبير بين الاخ والاخت وتدور احاج كثيرة جدا اساسا حول هذه

العلاقة .كما نجد حماية الاخ للاخت ومسئوليته الكاملة نحو ابناء هذه الاخت ووصايته عليهم وصاية كاملة مما يدل على أن هذه العلاقة القوية تشير الى ان هؤلاء الابناء يمثلون ورثة هذا الخال[٩].

وفي بعض الاحاجي فان هذه العلاقة مبالغ فيها . وفي حجوة «فاطمة السمحة» نرى ان الاخ يصر على الزواج من اخته بتشجيع او برضاء كامل من الاب والام . وربما يوضح هذا رغبة الاسرة في المحافظة على حقوق الوراثة في داخل الاسرة حيث تعتبر البنت هي الوارث الشرعي.

تورد الاحاجي اذن والى حد ما صورة لمجتمع كان «النظام الامومي» سائدا فيه . فالشخصيات الاساسية فيه (الاخت والخال والاميرة) ذات دور واضح في الاحاجي . هذه الشخصيات تمثل الوراثة عن طريق الانثي بعكس «النظام الابوى» الذى ساد بعد دخول العرب حيث تحولت الشخصيات المهمة تبعا لنظام الوراثة ، فصار لابن الملك والعم الدور الاول في الحياة الاجتماعية.

اسماء الاعلام في الاحاجي :-

يبدوا انه بالرغم من الدور الكبير للغة العربية كلغة للاسلام الذى آمن به سكان المنطقة – ومن المحتمل ايضا كلغة للتجارة – فأن استعمال غالبية السكان (في حوض النيل) لها كلغة اتصال Linguafranca قد اخذ عدة اجيال[١٠] لتصير اللغة الاساسية في الثقافة والمعاملات .

يلاحظ الدارس للاحاجي في منطقة الرباطاب انها قد احتفظت بكثير من الاسماء غير العربية وربما كانت هذه الاسماء تمثل بقايا اللغة المحلية التي كانت سائدة في المجتمع قبل انتشار اللغة العربية . كما ان بقايا هذه اللغة ظاهرة في اسماء الاماكن في المنطقة وخاصة في الجزر التي احتفظ معظمها باسماء غير عربية .اسماء الاماكن هذه بعد عرضها للدراسة اللغوية اتضح ان اسماء نوبية ما زالت تحتفظ بمعانيها وقد اصاب بعضها التحوير الطفيف في طريقة النطق لكى تتفق مع النظام الصوتي للغة العربية[١١] .

وبالرغم من صعوبة الجزم بأن اسماء الاعلام هذه ، التي تظهر في الاحاجي ، نوبية لكن ليس هناك من شك في انها غير عربية وهذه الاسماء النوبية للاماكن قد ترجح بأن الاسماء غير العربية في الاحاجي كانت تمثل في وقتها اسماء نوبية بحكم ان المنطقة التي جمعت منها الاحاجي هى نفس المنطقة التي بقيت فيها الاسماء النوبية للاماكن.

واذا استعرضنا مجموعة من اسماء الاماكن مع طائفة من اسماء الاعلام في الاحاجي[١٢] نجد انها تعطى الانطباع بأنها تمثل لغة واحدة لما تظهر من تشابه واضح في تركيباتها الصوتية:

بعض اسماء الاماكن النوبية	بعض اسماء الاعلام في الاحاجى
١/ كندى	١/كناتل
٢/ كجرات	٢/ جكركا
٣/ كجنقيلى	٣/ كعيجيل
٤/ كديته	٤/ كرتو
٥/ كركى	٥/ ككر
٦/ كشيوبة	٦/ نية

عرضت هذه الاسماء على الدكتور هيرمان بل والاستاذ محمد متولى بدر فأكدا لى انها اسماء نوبية.

ولا يستبعد ان تكون الاسماء غير العربية في الاحاجى قد اصابها تحوير كبير نتيجة للتداول في مجتمع اختفت فيه اللغة النوبية ولعهد طويل ، فنلاحظ ان هذه الاسماء تتبادل في الاحاجى ،ولا يلتزم الراوى كثيراً بالتوفيق في اى الاسماء يرتبط بحجوة معينة الا في حالات خاصة حيث يرتبط الاسم باحدى المقطوعات الغنائية التي ترد في حجوة معينة . فغالبا ما تحتفظ الصور المتعددة لحجوة واحدة باسم واحد اذا كانت فيها مقطوعة غنائية . ولكن نلاحظ مثلا في صور متعددة لحجوة واحدة ان اسم الشخصية الرئيسية في منطقة يكون «كرتو» وفي منطقة اخرى «كعيجيل» وفي منطقة ثالثة يكون «جكركا» او «جكرتا» . وهذا ربما كان نتيجة لان هذه الاسماء فقدت مدلولاتها وصارت لاتعني شيئا بالنسبة لمجتمع صارت فيه الاسماء العربية هى السائدة.

واحتفاظ كثير من الاحاجى بهذه الاسماء غير العربية ربما كان مرده الى طبيعة الاحاجى نفسها . فالاحاجى يغلفها جو غريب من الخرافة والسحر والاشياء الخارقة والمستحيلة وربما كانت هذه الاسماء الغريبة تناسب هذا الجو الغريب الذى يسود في الاحاجى وتضفي عليه مزيدا من الغرابة.

وهنالك ظاهرة اخرى ربما ساعدت على الاحتفاظ ببعض الاسماء غير العربية في بعض الاحاجى ، وهى تلك القطع المنظومة التي تمثل عنصرا مهما في بنية الاحاجى ، وتمثل جزءا اساسيا من ايقاعها ، مثل هذه المقطوعة :-

محمد محمد
محمد كناتل
كناتل ولدت
جابت عجيلة
حميرة وغريرة

وهناك مظهر اخر لظاهرة الاسماء في الاحاجى ربما كان مكملا للمظهر الاول وهو اننا نجد ان الاسماء العربية في الاحاجى تنحصر في عدد ضئيل جداً من الاسماء العربية سواء تلك التي ارتبطت بالدين كاسماء الصحابة او تلك التي تولدت في المجتمع السوداني بعد تغلب الثقافة العربية في السودان.

وتكاد الاسماء العربية في الاحاجى تنحصر في اسمين فقط:(محمد وفاطمة) .فاغلب الاحاجى تطلق اسم «فاطمة» على الشخصية الرئيسية اذا كانت انثي.والتفريق بين الاحاجى يعتمد على الاوصاف التي ترد بعد الاسماء . فهناك فاطنة السمحة وفاطنة الهندل ورق الصندل وفاطنة ام زميم وفاطنة القصب الاحمر الى آخر ما هناك من الفاطنات.

واسم محمد هو الاسم الغالب في معظم الاحاجى للدرجة التي نجد فيها الاسمين الرئيسين في حجوة واحدة هما محمد ولكن يميز بينهما الصفة الواردة بعد الاسم مثل محمد ود السبيل ومحمد ود الحواتي.

وفي احيان اخرى نجد في الحجوة الواحدة احدى الشخصيات تحمل اسما عربيا واخر غير عربي مثل حجوة (كناتل ومحمد) ويبدو ان هذه الاحاجى قد اكتسبت هذه الاسماء العربية في المراحل الاولى من انتشار الاسلام حيث كانت الاسماء العربية غريبة نوعا ما عن الاسماء المحلية.كما يبدو ان اسمى فاطمة ومحمد قد دخلا بسهولة في اللغة نتيجة لانتشار الاسلام ولارتباطها بالنبي ﷺ وابنته حيث انهما اهم شخصيتين بالنسبة للمسلم الجديد.

الدين والمعتقدات الافريقية في الاحاجى :-

بالرغم من انتشار الاسلام فأننا لا نجد انعكاسا له في الاحاجى في اية صورة من صوره الاساسية. والروح العامة للاحاجى تمثل عالما من المعتقدات والاساطير والممارسات التي قد تتنافي مع الاسلام.

وكذلك فأن الاسلام لا يمثل اى جزء من جزئيات الاحاجى (Motifs)الاساسية – وانما يكون في السطح – ويكاد يعتمد اعتمادا اساسيا على تدين الراوى نفسه اكثر من جزئيات الحجوة – يتمثل في ايراد جمل اسلامية مثل "بسم الله الرحمن الرحيم" او "لا الله الا الله محمد رسول الله".

وعندما تتعرض الاحاجى لشخصيات تمثل الاسلام في المجتمع كشخصية الفكى او الشيخ فانها لا تعكس هذه الشخصيات صورتها الحقيقية في المجتمع . فشخصية الشيخ في حجوة (الحوار الثعلب شيخه) هي شخصية ساحر يسكن في الغابة يذهب اليه التلاميذ للتعليم . وهو يعلمهم فنون السحر – وليس الدين . وعندما يتم تعليمهم يقوم باكلهم والحوار الذى غلب الشيخ لم يغلبه في الدين وانما في فنون السحر[1].

شخصية اسلامية اخرى تعكسها الاحاجى هى شخصية النبي الخضر وهى شخصية شبه اسطورية. فالجزئيات الاساسية في الحجوة التي يظهر فيها النبي الخضر لا تدور عن المظهر الديني لهذه الشخصية

وانما تدور حول الغيرة والزواج والسحر والعلاقات العائلية ...الخ وشخصيته الدينية لا تمثل جزئية اساسية في الحجوة بمعني ان هذه الشخصية الدينية في الاساس قد افرغت من محتواها الديني وبنيت الحجوة على مواضيع اخرى ليس الدين احداها.

ومن ناحية اخرى نجد الاحاجى تعكس لنا اساطيركاملة في الخلق او عن بعض الظواهر العامة . وبالرغم من ان هذه الاساطير قد حاولت الارتباط باحداث اسلاميه الا أن هذا لا يصرف نظرنا عن حقيقة أنها اساطير وثنية فى اساسها[١٢].

«كذلك اذا تأملنا الاحاجى اتضح لنا ان الديانات والمعتقدات الشعبية التي سبقت المسيحية والاسلام تمثل رافدا رئيسيا في تكوين هذه القصص فنجد الكثير من تلك القصص او بعض (موتيفاتها) تدور حول تقديس النيل وما يقدم له من قربان وما يتصل به من طقوس»[١٣].

ففي احدى الاحاجى مثلا يقدم الناس قربانا بشريا (فتاة لتمساح ذى سبعة رؤوس في وقت معين) مصحوبة بقربان آخر من الطعام (سبعة قداحة من الكسرة) ونجد ان لدى هذا التمساح ذى السبعة رؤوس المقدرة على منع الناس اخذ الماء من النهر اذا اخفقوا في تقديم القربان لا سترضائه[١٤].

كذلك هناك شخصيات اخرى مثل شخصية (الصقر) في حجوة (بيلا) وهو من المخلوقات الغامضة التي لها ارتباط بالسماء و يتشكل في شكل صقر.وربما كانت هذه الشخصيات صدى بعيدا لالهه وثنية قديمة . وهناك مخلوقات اخرى مثل « بليبل الصياح» وتعكسه الحجوة في صورة طائر خرافي يتصل بمعرفة الغيب والماضى والمستقبل.

كذلك فان بعض الاحاجى تعكس شخصية المرأة العجوز في صورة العرافة (Sooth sayer) في الديانات الوثنية . ففي الاحاجى يذهب الناس اليها للاستشارة في الاشياء الغريبة التي تتطلب منهم وهى تعرف اماكن هذه الاشياء وتعرف العقبات وتتنبأ بالاحداث وعندها المعرفة بالسحر الذى يساعد البطل في احرج اللحظات ويمكنه من التغلب على المستحيلات التي تعرفها العجوز مسبقا.

ومن المعتقدات الاخرى غير الدينية التي تعكسها الاحاجى شخصيات مثل الغول والسعلوة السحار.

الغول والسعلوه :-

تمثل شخصية الغول في الاحاجي الى حد بعيد صورة الاعتقاد في وجوده عند القبائل النيلية في جنوب السودان ومفهوم الغول منتشر بين هذه القبائل ، وهناك ادلة على الاعتقاد في وجوده عند قبائل الاشولى والانواك والشلك واللانقو والنوير والدينكا والمورول والديدينقاوالغول عند هذه القبائل

يرتبط بالاموات والمكر والخداع وهناك الكثير من القصص المنتشرة بينهم حول الغول ومن هذه القصص المنتشرة بينهم نجد ان الصفات الاساسية توافق الى حد بعيد الصورة المنعكسة للغول في الاحاجى :

في الاحاجى نجد ان الغول لايصور كمخلوق خرافي وانما كشخص ليس بغريب على المجتمع أو هو واحد منه ومعه كالحداد في حجوة (فاطمة ومحمد والغول)،ان الغول في المجتمع يصور ايضا كفرد من قبيلة او اسرة متكاملة وليس بالضرورة ان تكون كل الاسرة من الغيلان او السعالى الذين عندهم روح الشر والخبث والمكر والخداع والرغبة في ايذاء الناس . وقد يكون ابناء هذا الغول جزءا من المجتمع الطبيعى.فكثير من الاحاجى تعكس علاقات عادية بين ابناء السعالى والغيلان ، الذين هم في الاساس يعيشون في توافق تام مع المجتمع والذين يرتبطون معه بعلاقات عادية كالزواج وربما قاموا باعمال ضد رغبة امهاتهم وابائهم من الغيلان والسعالى.

اما عند القبائل النيلية في جنوب السودان فهناك الاعتقاد في ان الغول يعيش في عائلة او فرع من قبيلة وفي صميم المجتمع وليس بالضرورة ان يكون افراد اسرته من الغيلان مثله – بل هناك اعتقاد بأن اباء بعض افراد المجتمع الحقيقي من الغيلان.

فني احاجى النوير يستعمل الغول لحم الاموات في قتل ضحاياه حيث يجففه ويسحقه ويضعه في اكل ضحاياه . ولابد ان يربط الانسان بين هذا الاعتقاد وحجوة «فاطمة السمحة» حيث تسحق السلعوة عظام الموتي وتجعل منه عصيدة للبنات ويكون اثره فعالا في حالة اكله كما حدث للبنت الصغرى التي اكلت هذا الطعام.

ويعتقد المورول والنوير أن قتل الغول يجب أن يكون بطريقة تضمن عدم خروج نقطة من الدماء .فى حجرة«الغول» يستعيد الغول الحياة مرة بعد اخرى من نقطة الدم التى تخرج منه فى حالة محاولة قتله .ولم يمكن التخلص منه الا بعد أن احرقت كل مخلفاته .

وترتبط تحركات الغول فى أحاجى هذه القبائل بالليل وبالمقابر والاموات .

والغول فى اعتقاد هذه القبائل ليس مخلوقا اسطوريا أو وحشا خرافيا وانما يصور فى شكل اقرب الى الصورة الانسانية ولكن يميزه الخبث والرغبه فى الايذاء والشر ونفس هذه الصوره هى ماتعكسها الاحاجى فى أغلب ايرادها لشخصية الغول والسعلوه .

وخلاصة القول أن هناك ارتباطا كبيرا بين مفهوم الغول فى الاحاجى السودانيه وعند القبائل النيليه فى جنوب السودان(١٥)

السحار :

وتورد الاحاجى شخصية اخرى هى شخصية السحار أو «السحارى» وأهم مايميزهذه الشخصية انها-عكس الغول من آكلى لحوم البشر ومجتمع آكلى لحوم البشر مرتبط بممارسة افريقيه

وكان الاعتقاد فيه فى السودان شائعا الى زمن قريب وهو يستند الى شئ واقعى وليس خيالا محضاويقول ايفانز بريتشارد عن الازاندى (النيام نيام) انه ليس هناك مايدعو الى الشك فى أن الازاندى كانوا فى الماضى من آكلى لحوم البشر .(١٦)

وقد اصدر رئيس دولة افريقيه قبل عشر سنوات تقريبا مرسوما يقضى باعدام أكلة لحوم البشر فى بلاده وذلك فى خطوة للقضاء «على عادات تمارسها طائفة يقتل اعضاؤها اقاربهم ويأكلونهم بعد اداء شعائر سحرية .(١٧) فشخصية السحار كما تعكسها اغلب الاحاجى اذن هى انه من آكلى لحوم البشر.

السحر في الاحاجى :-

والسحر الذى تعكسه الاحاجى هو ذلك النوع من السحر الافريقي الذى يعتبر جزءا من الممارسات العادية في الحياة-بحيث انه لايثير اى نوع من الدهشة أو الغرابة ،وانما يعتبر جزءا من الموروث الاجتماعى الذى لايعتمد على قوى خفيه ،وانما يحتاج الى معرفة بفنونه وبالقواعد التي يجب اتباعها حتي يأتي السحر بمفعوله .يقول سليجمان «لا يمكن لاى شخص أن يعمل لمده كافيه مع الافريقين دون أن يواجه بهذا الايمان بالسحر الذى يدخل فى بنية المجتمعات الأفريقية ويكون جزاء مها من الموروث الاجتماعى لافريقيا [١٨] وممارسة السحر وقد يقوم بها ساحر متخصص او تعتمد على ممارسات واجراءات (Techniques)في مقدور اى شخص ان يتعلمها ويمارسها .

والاحاجى تعكس هذا النوع من السحر فني حجوة مثل حجوة(كناتل) نجد زوجة الاخ تقوم بهذه الاجراءات السحرية التي تؤدى مفعولها المطلوب بان تحمل كناتل كما ارادت زوجه الاخ .

والادلة على هذا النوع كثيرة وهى النوع الغالب في الاحاجى الذى يحتاج في الاساس الى المعرفة التامة (Skill)والخبرة(Practice).

وهناك اعتقاد اخر عند القبائل النيلية(النوير خاصه) وهو الاعتقاد بان التوائم هم في الاصل طيور مما يعني معاملة خاصة للتوائم بينهم [١٩] .وتعكس الاحاجى هذا الاعتقاد في احاجى كثيرة فنجد الاطفال يتقلبون الى طيور في مثل حجوة عقل البكار عند الرباطاب .وفي احدى الاحاجى نجد امرأة تلد توائم في شكل طائرين .

خاتمة :-

هذا البحث هو محاولة لدراسة بعض الظواهر الافريقية المحلية في الثقافة السودانية، ممثلة في الاحاجى بمنطقة الرباطاب .والصعوبة في هذه الدراسة تتمثل في ندرة المراجع التي تعين على البحث اذ أن الاتجاه السائد في الدراسات السودانية هو الاهتمام الكبير بالعناصر العربية في الثقافة السودانية

والاهمال شبه الكامل لعناصر الثقافة المحلية الافريقية الموروثة التي كانت سائده قبل دخول العرب في السودان والتى تعيش فى اعماق الشخصية السودانيه وتظل ترأسها فى كثير من الممارسات الاجتماعية والاعتقادات من ذلك مثلا ، عادة «حبينا » عند المناصير ، وهى تقديم قربان من الطعام للنيل فى وقت معين «واربعاء فرعون» عند الرباطاب حين يمتنعون طوال هذا اليوم عن أخذ الماء من النهر.

وبالرغم مما في الاحاجى من الثقافة العربية الا انها تعكس عناصر اساسية موروثه من الثقافات المحلية الافريقية .

فنجد اولا انها تعكس الى حد ماصوره للنظام الأموى الذى كان سائداً في السودان حتي دخول العرب .ومن ناحية اخرى نجد أن الاحاجى مازالت تحتفظ باسماء غير عربية ربما كانت سائده يوما ما في نفس المنطقة قبل أن تسود اللغه العربية وتنتشر الاسماء العربية .هذا الى جانب انها تعكس الديانات والمعتقدات الوثنية الشعبية والتي كانت سائده في المجتمع قبل انتشار الثقافة والدين الاسلامى ،والتي نلاحظ شبها قويا لها عند القبائل الزنجية في جنوب السودان .

الهوامش

* هذه مقالة منقحة ومعده عن رسالة قدمت ضمن متطلبات نيل دبلوم الدراسات الافريقية والآسيوية بمعهد الدراسات الافريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم .

(١) عبدالمجيد عابدين : القصة الشعبية في السودان – الخرطوم ، الدراسات الاضافيه ، ١٩٦٤م .

(٢) عز الدين اسماعيل : للقصة الشعبية في السودان ، دراسة في فنية الحكاية ووظيفتها ، ترجمة **Bascom**، القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١

3

P.L., Shinnie, **Meroe : Civilization of the Sudan** (London, 1967) P.153

4.

B.G., Haycock, (the place of the Napatan — Meroitic culture in the History of the Sudan and Africa) in Yusuf Fadl Hasan (ed.) , **Sudan in Africa** (Kup, 1971) p. 37.

(٥) تجدر الاشارة هنا الى ان هذه الصورة (الملكات الامهات) تظهر بصورة كثيرة في المجتمع السوداني بعد دخول العرب السودان في شخصيات مثل بشيه والملكة ستنا ، وكذلك وضع الحيوبات في مملكة الفور .

6

H . A . Mac Michael, Quating Ibn Khaldon, **History of the Arabs in the Sudan (London / 1967) p. 138.**

7. B. G. , Haycock, **op. cit,** p. 36.

8. B. G. , Haycock, **ibid,** p. 37.

تجدر الاشارة هنا الى ان دور الخال في السودان حتى عهد قريب دور كبير . فهو يظهر بوضوح في حالات الزواج والختان – حيث يتوقع منه تقديم هدية كبيرة جدا (مال – أو بهائم – أونخيل أو أرض بحسب نوع ثروته .) في هذا الموضوع انظر : الطيب محمد الطيب وآخران : التراث الشعبي لقبيلة المناصير سلسلة دراسات في التراث السوداني (٨) (الخرطوم ، ابحاث السودان جامعة الخرطوم اغسطس ١٩٦٩) ص ١٥ و١٧ .

10.

Yusuf Fadl Hasan, The **Arabs and the Sudan** (Khartoum : Khartoum Unversity Press, 1967) p. 176.

(١١) عرضت هذه الاسماء على الدكتور هيرمان بل والاستاذ محمد متولى بدر فأكد لى بانها اسماء نوبية .

12.

Sayyid Hurreiz : (Afro Arab Relations in the Sudanese Folk Tales, in **African Folklore** Dorson, R (ed.) Bloomington : Indiana University, press 1972 . pp . 367 — 8

(١٣) سيد حامد حريز : جذور الادب الشعبي في السودان الخرطوم : المجلس القومى لرعاية الآداب والفنون ١٩٧٥م.

(١٤) بالرغم من ان هذه جزئية (**Motifs**) عالمية ولكن ما يهم هنا هو انعكاسها المحلى واتصالها بالاعتقاد في النيل .

(١٥) عن مفهوم الغول عن هذه القبائل انظر:

١٦

P.P. Howell, and BA. Lewis,
"Nuer shou a form of witchcraft, **S. N. R.** vol. 28, 1947 . PP 157- 168

E. E. Evans pritchared **The Zande Trickster.** (Oxford, 1967 .) p. 25

(١٧) صحيفة الايام بتاريخ الاحد ١٢/١/١٩٧٥م ، ص ٢٠

18.

C. G. Scligman, **Pagan Tribes of the Nilotic Sudan,** (London, 1967 p **25**

E. E. Evans Pritechard , **Nuer Religion** (Great Britain, 1970) P. 131.